

الفصل الثامن

التَّصَوُّف

obeikandi.com

لقد التزم الفضيل - التزاماً كاملاً - مبدأ الصوفية الصادقين، وهو أن التصوف مؤسس على الشريعة، قائم بها.

إنه منبثق عنها، ومستند إليها، في كل خطوة من خطواته.

والتصوف معرفة، وسلوك إلى المعرفة.

وأسمى أنواع المعرفة هي معرفة الله تعالى.

وعن معرفة الله، يقول الفضيل:

« مَنْ عَرَفَ اللَّهَ مِنْ طَرِيقِ الْمَحَبَّةِ - بِغَيْرِ خَوْفٍ - هَلَكَ بِالْبَسْطِ
وَالْإِذْلَالِ.

وَمَنْ عَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْخَوْفِ انْقَطَعَ عَنْهُ بِالْبُعْدِ وَالْاسْتِيحَاشِ.

وَمَنْ عَرَفَهُ مِنْ طَرِيقِهِمَا مَعاً أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ، وَمَكَّنَهُ وَعَلَّمَهُ.

وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الضَّلَالِ.

وَمَنْ أَنْزَلَ الْمَوْتَ حَقَّ مَنَزَلَتِهِ لَمْ يَغْفَلَ عَنْهُ. »

ما الطريق إلى ذلك ؟

إن الطريق إلى ذلك يتسلسل بادئاً من الإقبال على الله سبحانه وتعالى. . . والإقبال على الله يهون من أجله كل شيء لأن غايته لا تعدلها غاية.

يروى الفيض بن إسحاق أنه سمع الفضيل بن عياض يقول:

« كُنْتُ - قَبْلَ الْيَوْمِ - أَعْجَبُ مَنْ يُعْطَى، وَأَنَا الْيَوْمَ لَا أَعْجَبُ،

لأنَّ الذي يطلبُ ليسَ صَغِيرًا.. وأنتَ لو بَلَغَكَ أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ مِنْ مَالِهِ لَتَعَجَّبْتَ، أو يَكُونُ صَاحِبَ غَزْوٍ أو رِبَاطٍ لَتَعَجَّبْتَ، وَمَا تَدْرِي مَا تَطْلُبُ لو كُنْتَ تَعْقِلُ هَذَا، وَلَكِنَّكَ لَا تَعْقِلُهُ.. وَاللَّهِ لو أَخْبَرْتُ عَنْ جَبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ بِشِدَّةِ اجْتِهَادٍ مَا عَجِبْتُ، وَكَانَ ذَلِكَ قَلِيلًا عِنْدَمَا يَطْلُبُونَ.. أَتَدْرِي أَيُّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ؟.. وَأَيُّ شَيْءٍ يُرِيدُونَ؟.. رِضًا رَبَّهُمْ - عِزٌّ وَجَلٌّ».

الخلاص :

ولقد سأل عبد الله بن مالك الفضيل قائلاً :

يا أبا عليٍّ: ما الخلاص مما نحن فيه ؟

فقال له :

«أخبرني.. مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ - عِزٌّ وَجَلٌّ - هَلْ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ أَحَدٍ؟».

قال : لا .

قال : « فَمَنْ عَصَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هَلْ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ أَحَدٍ؟ ».

قال : لا .

قال : « فَهُوَ الْخَلَاصُ إِنْ أَرَدْتَ الْخَلَاصَ ».

الإخلاص :

وهذا الخلاص يبدأ أول ما يبدأ بالإخلاص.. والفضيل يتابع - في

ذلك - القرآن الكريم، والسنة الشريفة.. يقول الله تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾^(١).

ويقول الله تعالى - فى حديث قدسى :-

« أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ .. فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ »^(٢).

ويقول رسول الله ﷺ :

« إِنْ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَقُول :

« أَنَا خَيْرُ شَرِيكَ ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ شَرِيكًا فَهُوَ لَشَرِيكِي ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا خَلَصَ لَهُ .. وَلَا تَقُولُوا : هَذِهِ لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ ، فَإِنَّهَا لِلرَّحِمِ ، وَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهَا شَيْءٌ ، وَلَا تَقُولُوا : هَذِهِ لِلَّهِ وَلَوْجُوهِكُمْ ، فَإِنَّهَا لَوْجُوهِكُمْ وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْهَا شَيْءٌ »^(٣).

ويقول ﷺ :

« مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ »^(٤).

(١) سورة الزمر : ٣ .

(٢) رواه ابن ماجه ، وابن خزيمة فى صحيحه ، والبيهقى ، ورواه ثقات .

(٣) رواه البزار بإسناد لا بأس به ، والبيهقى ، واختلف فى إرساله ورفعه .

(٤) رواه ابن ماجه والحاكم .

والفضيل - متابعاً لذلك - يقول :

« كَانَ يُقَالُ: لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ، مَا إِذَا قَالَ قَالَ لِلَّهِ، وَإِذَا عَمِلَ عَمِلَ لِلَّهِ » .

ويقول :

« لَئِنْ أَطْلُبُ الدُّنْيَا بَطْبَلٍ وَمِزْمَارٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَطْلُبَهَا بِالْعِبَادَةِ » .
وكان في شعوره دقة بالنسبة للمعنى الصادق للإخلاص .. إنه يقول :

« لَوْ قِيلَ لِي: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ دَاخِلٌ عَلَيْكَ، فَسَوَّيْتُ لِحَيْتِي .. خِفْتُ أَنْ أُكْتَبَ فِي جَرِيدَةِ الْمُنَافِقِينَ » .

ويعبر الفضيل عن صلة الإنسان بالله، فيقول لرجل :

« لِأَعْلَمَنَّكَ كَلِمَةً - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا - وَاللَّهِ لَئِنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْكَ إِخْرَاجَ الْأَدْمِيِّينَ مِنْ قَلْبِكَ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيكَ مَكَانٌ لِفَإِخْرَاجِهِ؛ لَمْ تَسْأَلْهُ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاكَ » .

الخوف:

هذا الإخلاص لا يتأتى أن يسير الإنسان في الحياة على صراطه المستقيم ، ما لم يكن عنده خوف من الله سبحانه وتعالى .

يروى إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :
« أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ أَخَوْفُهُمْ لَهُ » .

« وَإِنَّ رَهْبَةَ الْعَبْدِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ بِهِ . »

وفى هذا: يتابع الفضيل رسول الله ﷺ ، إذ يقول:

« أَنَا أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَشَدُّكُمْ خَشْيَةً لَهُ . »

وإن من خاف الله تعالى - كما يقول الفضيل - لم يضره شيء ،
ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد .

ولقد كان الخوف طابعاً للفضيل ، يقول إبراهيم بن الأشعث خادم
الفضيل :

« مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ اللَّهُ فِي صَدْرِهِ أَعْظَمَ مِنَ الْفُضَيْلِ .. كَانَ إِذَا
ذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَهُ ، أَوْ سَمِعَ الْقُرْآنَ .. ظَهَرَ بِهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحَزَنِ ،
وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ .. فَبَكَى حَتَّى يَرْحِمَهُ مَنْ بِحَضْرَتِهِ . »

الخوف والرجاء:

ومع ذلك فإن الرجاء من الأمور التي ينبغي للإنسان أن يأمل فيها
باستمرار ، وعن الخوف والرجاء يقول الفضيل :

« الْخَوْفُ أَفْضَلُ مِنَ الرَّجَاءِ ، مَا دَامَ الرَّجُلُ صَاحِحًا .. فَإِذَا نَزَلَ بِهِ
الْمَوْتُ فَالرَّجَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الْخَوْفِ . »
ويقول :

« إِذَا كَانَ فِي صِحَّتِهِ مُحْسِنًا عَظُمَ رَجَاؤُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَحَسُنَ ظَنُّهُ .
وَإِذَا كَانَ فِي صِحَّتِهِ مُسِيئًا سَاءَ ظَنُّهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَلَمْ يَعْظُمَ رَجَاؤُهُ . »

العبادة:

وإذا شعر الإنسان بالخوف من الله، والرجاء فيه.. دفعه ذلك إلى العبادة..

ويروى الفضيل - في العبادة - بسنده، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال:

« الشَّتَاءُ غَنِيمَةُ الْعَابِدِ »^(١).

وسار الفضيل في حياته على أنها عبادة.. لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٢).

أى: ليصيروا الحياة عبادة في جميع حركاتها وسكناتها، في المصنع والمعمل والحقل والتدريس والوظيفة - أى أن الحياة يجب أن تطبع بطابع العبادة فتكون لله وحده في جميع زواياها، وتكون بذلك عبادة.. وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله يشير إلى ذلك في الحديث التالي:

« عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله قالوا للنبي صلّى الله عليه وآله: يا رسول الله.. ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم..

(١) أى: لطول ليله واتساع فرصة العبادة فيه.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

قال : « أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ ؟ .. إِنَّ بَكْلًا تَسْبِيحَةَ صَدَقَةٍ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٍ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٍ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٍ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » .

قالوا : يا رسول الله ، أيا تى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ ؟ .. فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » (١) .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال :

« جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حُجَّةِ الْوُدَّاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ .. إِنِّي قَدْ بَلَغْتُ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي .. أَفَأَتَصَدَّقُ بِثَلْثِي مَالِي ؟ .. قَالَ : لَا .. قُلْتُ : فَالشَّطْرُ (٢) يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .. فَقَالَ : لَا . قُلْتُ : فَالْثُلُثُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ .. قَالَ :

« الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » - أَوْ كَبِيرٌ - إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ إِنْ تَتَّقِ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي (فَمِ) أَمْرَاتِكَ » .

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) الشطر : النصف .

قال: فقلت: يا رسول الله.. أخلف بعد أصحابي؟ قال:

«إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجهَ الله إلا ازددت به درجةً ورفعةً، ولعلك أن تخلف حتى يستفجع بك أقوامٌ ويضُرَّ بك آخرونَ.. اللهم أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»^(١).

وقد كان الفضيل من كبار المتعبدين، وكانت ليليه تسير على النسق التالي:

« كان يُلقَى لَهُ حَصِيرٌ بِاللَّيْلِ فِي مَسْجِدِهِ فَيُصَلِّي مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ سَاعَةً ، ثُمَّ تَغْلِبُهُ عَيْنُهُ فَيُلْقِي نَفْسَهُ عَلَى الْحَصِيرِ فَيَنَامُ قَلِيلًا ثُمَّ يَقُومُ فَإِذَا غَلَبَهُ النَّوْمُ نَامَ؛ ثُمَّ يَقُومُ، وَهَكَذَا حَتَّى يُصْبِحَ » .

ويقول الفضيل:

« إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ مُكْبَلٌ، كَبَلَتْكَ خَطِيئَتُكَ » .

وكان الفضيل يصف نفسه حينما يقول:

« أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا يَسْتَحْيُونَ مِنَ اللَّهِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مِنْ طُولِ

(١) متفق عليه .

الهِجْعَةَ.. إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْجَنْبِ، فَإِذَا تَحَرَّكَ قَالَ لِنَفْسِهِ : لَيْسَ هَذَا لَكَ.
قَوْمِي خُذِي حَظَّكَ مِنَ الْآخِرَةِ .

الذِّكْرُ:

ومن العبادة الذكر:

ويروى إبراهيم بن الأشعث - الذى كان يلزم الفضيل ملازمة
تامة - عن الفضيل قوله :

« الذَّاكِرُ سَالِمٌ مِنَ الْإِثْمِ - مَا دَامَ يَذْكُرُ اللَّهَ - غَانِمٌ مِنَ الْأَجْرِ . »

والصوفية - على وجه العموم - يُنْزِلُونَ الذكر منزلة سامية فى
مجال العبادة .

يقول الإمام القشيري :

« قَالَ الْأَسْنَاذُ: وَالذِّكْرُ رُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ
وَتَعَالَى.. بَلْ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَى اللَّهِ إِلَّا
بِدَوَامِ الذِّكْرِ »..

والصوفية - فى ذلك - يتابعون رسول الله ﷺ متأسين به .. إنه

ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ - فى الحديث القدسى -:

« أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي ، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَّتَاهُ »^(١) .

(١) رواه ابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه .

وقال رجل للرسول ﷺ : يا رسول الله .. إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به ؟ ..

قال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » (١).

وقال ﷺ :

« مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ اللَّهَ .. مَثَلُ الْحَيِّ

وَالْمَيِّتِ » (٢) ..

ولقد كان الفضيل معنياً برواية الأحاديث الصحيحة في الذكر ..

ومما رواه أبو هريرة في ذلك :

١- روى الفضيل، عن الثوري، عن أبي صالح مولى التوأمة، عن

أبي هريرة، عن النبي ﷺ ، قال :

« ما جلس قوم قط، فتفرقوا ولم يذكروا الله، ولم يصلوا على

النبي ﷺ ، إلا كانت عليهم ترّة يوم القيامة .. إن شاء عفا عنهم،

وإن شاء عذبهم » (٣).

٢- وحدّث الفضيل ، عن الأعمش ، عن أبي صالح، عن أبي

هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى - في الحديث

القدسى - :

(١) رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) مشهور من حديث الثورى .

« مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرَ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (١).

٣- وروى الفضيل بن عياض، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه :

« إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً - فَضْلًا عَنْ كُتَابِ النَّاسِ - يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ وَيَسْتَفُونَ الذِّكْرَ.. فإِذَا رَأَوْا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيَّ حَاجَتَكُمْ.

قال: فَيَحْفُوفُهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.. فيقول الله - وهو أعلم - : ما يقول عبادي ؟

قالوا: يَحْمَدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ وَيَمَجِّدُونَكَ.

فيقول: هَلْ رَأَوْنِي ؟

فيقولون: لا.

فيقول: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟

فيقولون: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَعْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.

فيقول: فَمَا يَسْأَلُونِي ؟

(١) صحيح من حديث الأعمش .

فيقولون: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ.

فيقول: وَهَلْ رَأَوْهَا؟

فيقولون: لا.. واللّٰه يا ربُّ ما رَأَوْهَا.

فيقول: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟

فيقولون: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حَرِصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلِبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

فيقول: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟

فيقولون: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ.

فيقول: وَهَلْ رَأَوْهَا؟

فيقولون: لا واللّٰه ما رَأَوْهَا.

فيقول: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟

فيقولون: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فَرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً.

فيقول: أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ.

فيقول مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ.

فيقول الله تعالى: هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(١)..

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

الورع:

وإذا أقبل الإنسان على الله سبحانه وتعالى، وصدق في عبادته وفي ذكره تحرّج في حياته وتورّع عن المحارم..

- ولقد سئل الفضيل عن الورع، فقال:

« اجْتَنَابُ الْمَحَارِمِ ».

وقال: « أَشَدُّ الْوَرَعِ فِي اللِّسَانِ ».

الزهد:

إذا أقبل الإنسان على الله سبحانه وتعالى، وصدق في عبادته وذكره، وتحرّج في حياته، وتورّع عن المحارم، زهد في الدنيا (الشهوات) ..

ولقد سئل الفضيل عن الزهد في الدنيا، ما هو ؟

فقال:

« الْقَنَاعَةُ، وَهِيَ الْغِنَى ».

وقال في توجيه الناس إلى الزهد:

« إِنَّ زُهَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا، عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ ».

وقال:

« لَوْ زَهَدَ الْعُلَمَاءُ فِي الدُّنْيَا، لَخَضَعَتْ لَهُمْ رِقَابُ الْجَبَابِرَةِ ».

وكان يقول:

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْمَعَ كَلَامُهُ إِذَا تَكَلَّمَ فَلَيْسَ بِزَاهِدٍ ».

ويصل الأمر بالفضيل أن يقول :

« جُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا » .

ولقد كان الفضيل يعنى بذلك : الزهد فى الدنيا من أجل الله سبحانه وتعالى . . ألا تشغل الدنيا الإنسان عن الله . . ألا تستعبده وتملكه وتسترقه، فيصبح عبداً للدنيا . والله يحب أن يكون عبداً له .
والدنيا التى ينفر منها الصوفية : هى عالم الأهواء والنزوات والشهوات .

ويقول الفضيل عن الدنيا :

« لَا يَسْلَمُ لَكَ قَلْبُكَ حَتَّى لَا تُبَالِيَ مِنْ أَكْلِ الدُّنْيَا » .

التواضع :

ومن الخلق الصوفى : التواضع . وللفضيل تعريف جميل للتواضع . . يقول إبراهيم بن الأشعث :

« سَأَلْتُ الْفَضِيلَ : مَا التَّوَاضُّعُ ؟ . فَقَالَ :

« أَنْ تَخْضَعَ لِلْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لَهُ . . وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِنْ صَبِيٍّ قَبْلَتْهُ مِنْهُ، وَلَوْ سَمِعْتَهُ مِنْ أَجَلِ النَّاسِ قَبْلَتْهُ مِنْهُ » .

الصبر :

ولقد سئل الفضيل : ما الصبر على المصيبة ؟ . . فقال :

« أَنْ لَا تُبْتَئَ » . . أى : لَا تَشْكُو . .

التوكل:

والتوكل فى عرف الصوفية الصادقين: هو اتخاذ الأسباب كاملة غير منقوصة، مع الثقة فى الله قبل اتخاذ الأسباب، وفى أثنائها، ومن بعدها.. . فإليه سبحانه يرجع الأمر كله.. .

ويقول الفضيل فى صفة المتوكل:

« المتوَكِّلُ الوائِقُ باللهِ ، لا يَتَّهِمُ رَبَّهُ ، ولا يَخَافُ خِذلَانَهُ ، ولا يَشْكُوهُ » .

المحبة :

ويصل الصوفى فى معراجهِ إلى الله سبحانه وتعالى إلى المحبة :

يروى أبو عبد الله الساجى، أن رجلاً سأل الفضيل بن عياض

فقال :

« يا أبا على : متى يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالى ؟ » .

فقال له الفضيل :

« إِذَا كَانَ عَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ إِيَّاكَ عِنْدَكَ سَوَاءً ، فَقَدْ بَلَغْتَ الْغَايَةَ مِنْ

حُبِّهِ » .

وروى الحسين بن زياد ، قال :

« أَخَذَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ بِيَدِي ، فَقَالَ :

« يَا حُسَيْنَ : يَنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، فيقول :

«مَنْ ادَّعى مَحَبَّتِي إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي!!... أَلَيْسَ كُلُّ حَبِيبٍ
يُحِبُّ خُلُوةَ حَبِيبِهِ.. هَآنَذَا مُطَّلَعٌ عَلَى أَحِبَّائِي.. إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ مَثَلَتْ
نَفْسِي بَيْنَ أَغْنِيَتِهِمْ ، فَخَاطَبُونِي عَلَى الْمَشَاهِدَةِ، وَكَلِّمُونِي عَلَى
حُضُورٍ، غَدًا أَقْرَأُ أَغْنِيَةَ أَحِبَّائِي فِي جَنَّاتِي .»

أما حقيقة المحبة، فقد قال الفضيل بشأنها:

« حَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ: إِشَارُ الْمَحْبُوبِ عَلَى الْكَوْنَيْنِ فِي الْقُرْبِ
وَالْبَعْدِ. »

الرضا:

والرضا: منزلة وَأَزَنَ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَحَبَّةِ،
وَفَضَّلُوهَا عَلَى الْمَحَبَّةِ..

وعن الرضا يقول الفضيل:

« دَرَجَةُ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - دَرَجَةُ الْمُقَرَّبِينَ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا رَوْحٌ وَرِيحَانٌ .»
